الكذب والنسيان

كما يراهما « أبو العلاء المعرى »

للأستاذ كامل كيلانى

١ — آفة الأخبار

المعرى أديب محقق ، وراوية ثبت ، ومؤرخ نافذ البصيرة ، وناقد منصف ، يستخدم كل ما وهبه الله من ميزات باهرة ، وثقافة شاملة نادرة ، فى سبيل الوصول إلى الحقيقة ، وتحليتها مما يكتنفها من الأستار والحجب ، وإماطة اللثام عما يعترض الباحثين عنها من الشكوك والريب .

يقول الشاعر :

« هُمُ نقلوا عنى الذى لم أقُلْه به وما آفةُ الأخبار إلا رواتها »

٢ — آفة الرواة

وآفة الرواة — فيما يرى أبو العلاء — شيئان : الكذب والنسيان . فلا غرو إذا ضجر بهما ، وعرض لهما فى كثير من المناسبات ، واحتفل لهما ما شاء له أدبه وخياله ، وأتى فى الحديث عنهما بالشائق المعجب .

٣ — قتل الفكرة

فهو إذا فزَّعه من الموت أنه يبيد الجسم الذى لا يعنيه منه إلا أنه سياج الروح وهيكلها ، فزَّعه من الكذب أنه قتل للفكرة وإضاعة للحقيقة التى يبحث عنها جاهداً ، وفزَّعه من النسيان أنه قتل للعقل الذى يعتز به ولا يعدل به شيئاً . قال : أصبحتُ فى بيت مدر لا أملكه ، كبيت قريض أستدركه ، اشتمل عليه النسيان فهو مهلكه .

٤ — تمنى الموت

على أنه قد يتمنى الموت أحياناً ، لأنه يريح الإنسانَ من آلام الحياة ، ويريح الجسم من أذيتها ، ويغنى صاحبه عن حاجا الدنيا فيقول :

العيش أفقر منا كل ذات غنى والموت أغنى بحق كل محت

إذا حياة علينا للأذى فتحت باباً من الشر لاقاه بارة

أو يقول :

على البلى سيفيد المرء فائدة فالمسك يزداد من طيب إذا سح

٥ — تسويغ الكذب والنسيان

وقد يوصى بالكذب إذا عرَّض الصدق صاحبه للهلاك فيقو أصدق إلى أن تظن الصدق مهلكة

وبعد ذلك فاقصد كاذباً و

فالين جيفةُ مضطرّ ألمَّ بها والصدق كالماء يجفى خيفة الـ

وقد يتمنى النسيان والذهول ليتمثل بذلك همومه وأحزانه فيقو

تمنيت أن الخمر حلت لنشوة تجهلنى كيف اطمأنت بى الحا

فأذهل أنى بالعراق على شفا رزى الأمانى لا أنيس ولا

مقل من الأهلين يسر وأسرة كفى حزنا بينٌ مشيت وإقا

وهى لفتات ذهنية عارضة لا يجهل القارئ مغزاها ، وم كلامية لعله أعرف منا بغايتها ومرماها .

٦ — تحجير العقل

على أن الأدب العلائى قد حفل — شعراً ونثراً — بتمج العقل ، وحب الصحيح والتفزع من الذهول والنسيان فهو يقو

الفكر حبل متى يمسك على طرف منه ، ينط بالثريا ذلك الط

والعقل كالبحر غيضت جوابه شيئاً ، ومنه بنو الأيام تغتـ

ويقول :

وينفر عقلى مغضباً إن تركته سدى وانبعث الشافى ومال

ويقول :

وإذا الرياسة لم تمن بسياسة عقلية خطئ الصواب السا

ويقول :

صدقت ياعقل فليبعد أخو سفه صاغ الأحاديث إفكا أو تا

٧ — طول الأمد

ويرى طول الأمد كفيلا بالنسيان . فيقول :

لأنسينك إن طال الزمان بنا وكم صديق تمادى عهده فنسى

ويقول :

وسوف ننسى فنمسى عند عارفنا وربما لنا فى أقاصى الوهم أشباح

ويقول فى رسالة الغفران على لسان المهلهل ، حين سأله ابن القارح عن بيت ينسبه إليه ، كان الأصمعى ينكره ويقول إنه مولد ، وكان أبو زيد يستشهد به ويثبته : فيقول المهلهل :

« طال الأبد على لُبَدٍ ، لقد نسيت ما قلت فى الدار الفانية » .

٨ — رسالة الشياطين

ومن أبدع ما قرأناه للمعرى فى هذا الباب ما كتبه عن النسيان فى رسالة الشياطين التى ألحقناها برسالة الغفران فى طبعتها الثالثة . فقد نسى اسمه أحد عارفيه ولم يُثبته ، وجعله محمداً بدلا من أحمد ، ثم نسى مرة ثانية فقصر كنيته فقال : « أبو العلا » بدلا من « أبى العلاء » فعاتبه المعرى متلطفاً وإن بدا من ثنايا عتابه الرقيق ألمه لنسيان صاحبه الذى حداه إلى تبديل اسمه وقصر كنيته . قال : « ودلنى كتابه على أنه يحسبنى قد أضعت وده ، وتناسيت فى طول الزمان عهده . إنى إذاً لمن الظالمين . عرفنى بنفسه أنه من أهل البصرة ، وقد صح معى أنه من أهل البصيرة الساكنة فى خلده ، وتلك أجل من البصرة بلده ، وهل البصرة إلا حجارة بيض ، يطؤها إنس وربيض (يعنى الأغنام ورعاتها) إلى أن يقول : وأهل البصرة — سلمهم الله — ينسبون إلى قلة الحنين . أليس قد مرت به هذه الحكاية ، وهى أنه وجد على حجر مكتوب :

ما من غريب ، وإن أبدى تجلده

إلا سيذكر — عند العلة — الوطنا

وقد كتب تحته : إلا أهل البصرة . فإذا كانت تلك سجيتهم مع أهلهم وأوطانهم ، فكيف بالذين عرفوهم من إخوانهم .

٩ — تغيير الاسم

وهنا خلص إلى غرضه الذى يهدف إليه فقال :

والدليل على ماقلت إنه — أدام الله عزه — لم يثبت اسمى . جعلنى « محمداً » واسمى « أحمد » فإن احتج بأن هذين الإسمين سواء لقوله تعالى : « محمد رسول الله ، والذين معه ... الخ » .

ولقوله فى موضع آخر : « برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد » فإن ذلك إنما كان للنبى (ص) خاصة ، لأنه قال : « اسمى فى السماء أحمد ، وفى الأرض محمد » .

فإن قال : « إن العرب قد يكون للرجل منهم الإسمان والثلاثة » واحتج بقول دريد بن الصمة :

« تنادوا فقالوا : أردت الخيل فارسا

فقلت : أعبد الله ذلكم الردى »

وقال فيها :

فإن تُنْسنا الأيام والعصر تعلموا

— بنى قارب — أنا غضاب بمَعْبد

(والمعرى إنما يستشهد بهذا البيت لأن معبداً وعبد الله علمان على شخص واحد) فإن ذلك لا يخلو من أحد أمرين :

« إما أن يكون للرجل اسمان » ولست كذلك ، وإما أن يكون الشاعر غير اسمه للضرورة . ولو كان غير اسمى فى النظم — دون النثر — لكان عذره فى ذلك منبسطاً لأن الشعراء الجلة يغيرون الأسماء . قال الحطيئة :

« وما رضيت لهم حتى رفدتهـــم

من وابل[1] رهطِ بسطامٍ بأحرام

فيه الرماح ، وفيه كل سابغة قضّاء محكمةٍ من نَسْج سلام

أراد سليمان عليه السلام . وهذا تغيير على غير قياس لايسلك مسلك غيره ، من قولهم : عالية وعُلَيَّة . وفاطمة وفطيمة فى القصيدة الواحدة يعنون امرأة بعينها .

ولا مجرى قولهم أبو قابوس وأبى قبيس للنعمان بن المنذر لأن هذا ترخيم التصغير . إلى أن قال : « ولا ندفع أن الشعراء قد سموا الرجل باسم أبيه على سبيل الضرورة وهكذا إلى أن قال : « وأنا أتسامح له ، وأعدها زيناً لا شيناً ، إذ كانت قَذاةً فى بَحْرٍ مُزْبد ، بل أثر سجود فى جبهة متعبد . وله أن يقول : إنه تشبث بالكنية فاستغنى بها عن الإسم . أما أنا فحفظت اسمه ونسبه وكنيته ، ولم أنس أيامه ولا مذاكرته . وقد جعلت جواب كتابه نائباً مناب الاجتماع معه ، فلا ينكر علىّ الامتهاب فى المحاورة ، والإكثار من المفاوضة .

(البقية فى العدد القادم)

كامل كيلانى

(١) الوابل : الابل والغنم .